7 ـ اذا استثنينا الافلام القصيرة ، نجد أن الخطاب السينمائي يتجلى في المغرب من خلال 25 شريطا . أنجزت كل هذه الافلام ابتداء من 1969 ، الشيء الذي يجعل معدل الانتاج السنوي المغربي في ميدان السينما يساوي 2ر5 فيلم . ـ لا تهمنا هنا ضآلة هذا المعدل بقدر ما يهمنا أن نرى ما هي نوعية الخطاب الذي تنطق به الافلام المغربية منذ عشر سنوات .

8 ـ ودون أن ندخل في التحليل الدقيق يمكن أن نلاحظ ما يلي : لا يمكن لخطاب ما ان ينطلق من العدم ، كما لا يمكن أن يفرض وجوده دون اقرار خصوصية محددة وهوية راسخة ـ وتاريخ الاتجاهات والمدارس السينمائية في العالم يبرز بوضوح ضرورة الخطاب السينمائي على أنها تخضع لجدلية التسلسل والقطيعة .

9 ـ التسلسل هو ما يجعل المدارس والاتجاهات تأخذ بعين الاعتبار واقع الخطاب في المرحلة التاريخية الخاصة التي تظهر فيها تلك المدرسة أو يبرز فيها ذلك الاتجاه ـ مثلا ، ان الواقعية الجديدة الايطالية ، عبارة عن متابعة للواقعية الشعرية الفرنسية لكن انطلاقا من رؤيا جديدة حددتها وسائل تقنية جديدة .

10 ـ اما القطيعة فهي ما يسمح لمدرسة او اتجاه ما باستقدام مقولات مختلفة عن المقولات المعتادة التي تسود في المرحلة التاريخية الخاصة التي تظهر فيها تلك المدرسة أو يبرز فيها ذلك الاتجاه . ـ ونجد هنا أن نفس الواقعية الجديدة الايطالية تشكل رفضا قاطعا لتقنيات الاستوديو وما تتضمنه من تحديد خاص للرواية والسرد والتصور في ميدان الانجاز السينمائي .

11 ـ من هذه الزاوية ، يتبين لنا أن خطاب الافلام المغربية لم يتبن الى حد الآن جدلية التسلسل والقطيعة ، وذلك لاسباب تاريخية لا تهم المغرب فحسب بل نجدها في سائر سينمات العالم الثالث . ـ ومنطق هذا الخطاب ينطوي اساسا تحت مفهوم صعب التحديد الحقيق رغم أنه سهل الملاحظة الميدانية : مفهوم التبعية .

12 ـ ان التبعية في الميدان الذي يهمنا هنا هي ذلك النمط من التعبير الذي ينفي ذاتية المتكلم ملغيا في نفس الوقت الشروط الضرورية لانتاج أي خطاب له استقلاله الذاتي : مكونات خصوصية (لا فلكلورية) ، وبعد كوني (لا جهوي) ـ من هنا مفهم فشل نموذج شريط الاغاني والرقص (المصري) كاعادة ميكانيكية لنموذج الكوميديا الموسيقية الهوليودية الذي نطق فترة بخطاب مبدع داخل واقعه قبل أن يصير بنفسه اعادة انتاج لنفسه ، ومن هنا كذلك نفهم فشل الكثير من السينمات الوطنية ما بين 1960 و 1970 التي تبنت الرفض دون 1) أن تعرف بوضوح ماذا ترفض بواسطة هذا الرفض (ايديولوجيات أم تقنيات أم كتابات أم كل هذا ؟ وفي هذه الحالة ماذا يمكن أن يقترح واقعيا ؟) ، و 2) دون أن يكون واقع مستهلكيها ناضجا لقبول منطق الرفض وبالتالي المساهمة في عملية القطيعة . ـ بعبارة اخرى ، ان الواقع الاجتماعي بكل ما يتضمنه من تناقضات ومميزات خاصة يساهم في تشكيل الخطاب المبدع بقدر لا يقل أهمية عن مساهمة الذات المبدعة ـ وهذه بديهية لا يصح تجاهلها ولا يمكن تلافيها .

13 ـ وعندما نقول ان منطق التبعية هو الذي يهيمن على الخطاب السينمائي المغربي ، نقصد بذلك شيئين متمايزين ـ بغض النظر عن أن الافلام المغربية لا تبرمج كيفما كان الحال في القاعات المغربية ، وهذا ناتج عن تبعية اساسية ليست مسجلة في كتابة الفيلم بقدر ما هي مسجلة في نوعية خاصة من الذكاء أو البلادة (حسب الزاوية) التي يتميز بها المواطن الموزع والمواطن المستغل للقاعات .

● **الدائـرة النـاريـة / مومن السميحـي**

مقالة عن احد مخترعي السينما : الحسن ابن الهيثم ، في شبه نص فيلمي ـ وثائقي .

---

1) اختراع السينما : آلة التصوير ، جهاز العرض ، شريط التصوير .

نتج عن تطور الكلام العلمي أو شبه العلمي عبر الزمان والمكان . ذلك التطور الذي انطلق في أوائل عهد النهضة الاوربية (القرن الرابع عشر) .

2) نعني بالكلام العلمي او شبه العلمي لا فقط كل ما يكتب ويدون عبر العصور والمجتمعات من معلومات واستنتاجات واقتراحات علمية بل كل ما من شانه ان ينمي ويطور المعرفة الانسانية ، من ممارسات وابحاث ، واختراعات غوية هامشية ، محاولات واخفاقات الخ ... (كل هذه النشاطات والممارسات يمكن ان يطلق عليها اسم النص او الخطاب او الكلام او القضية العلمية) .

3) اختراع السينما نتيجة نص علمي قديم قدم الحضارة الانسانية . بصورة افلاطون الفلسفية عن الكهف تخط العلامات الاولى التي ستحدد فيما بعد السينما = الصورة الافلاطونية تحتوي على الكهف اي مكان مقفول ضليل حيث لا يرى فيه الا خيال الاشياء الواقعية ، فالخيال في مكان وفي مرتبة الواقع . بطليموس في القرن الثاني الميلادي سينتكلم (وسيفسر) عن حقيقة بصرية اولية وهي توهم الحركة ، لكن يجب انتظار عهد النهضة الغربي لكي تتبين العلامات الواضحة الاولى التي تعلن عن الاختراع .

4) عهد النهضة الغربي ينطلق من حركة تشكيلية ايطالية اطلق عليها اسم كواتروتشنتو (Quatrocento) وهي المنظور الاصطناعي . حركة ادخلت في التشكيل اهمية نظرية المنظور الاصطناعي (Persistance retinienne) (« المسافة بين خطين متوازيين تبدو وكانها تزداد ضيقا على البعد حتى يبدو الخطان في النهاية وكانهما يلتقيان في النقطة الافقية التي يختفيان فيها عن الانظار ») . هذا المنظور عندما يظهر في لوحات ليوناردوفانسي مثلا فانه ينوه بما سيسمى فيما بعد بالحجرة المظلمة (OSURA) ، التي لن ترى الوجود الا في القرن 17 م. حيث ادى الى اختراعها والكلام عنها تطور علم البصريات الهندسية (مفهوم الحجرة المظلمة : صندوق مغلق به ثقب تنعكس خلاله اشعة من اصل ضوئي ، تمر عبر الاجسام فتظهر هذه الاجسام منقلبة راسا على عقب) .

5) يتركز الاختراع الكبير على مبدأين اساسيين : كل منهما ينتج عن محاولات متعددة ، وتطبيقات مختلفة واحيانا متناقضة عبر العصور والمجتمعات . هذان المبدءان هما :

أ) الحجرة المظلمة التي تهدف الى محاكاة الواقع بانتاج صورة عنه تكون في مشابهة كاملة. وآخر خطوة في تطور نظرية الحجرة المظلمة ستكون هي : اختراع الصورة الفتغرافية . لنلاحظ هنا ان اول صورة لمخترع الآلة الفتغرافية ، وهو (نيسفورنيبس) ، تمثل تطورا للسطوح التي يراها المصور المخترع من نافذة بيته . كما يجب ان نلاحظ في طيات هذا الاختراع علامات علم الكيمياء والبصريات

ب) اما المبدأ الثاني فهو ما يسمى ببقاء الرؤية (Perspectiva Artificiales) تلك النظرية التي هي حقيقة بصرية قديمة والتي سيطبقها بوسيلة آلة تقنية الاخوان لوميير الفرنسيين (Lumière) ، والمخترع الامريكي ادسون ((Edison)) (ان حرب حقوق الاختراع بين الدول الراسمالية لم تحدد بعد الاسبقية بصفة نهائية . كما لو كانت هناك اسبقية في ميدان الكلام) . بقاء الرؤية هو بقاء الاحساسات الضوئية راسخة بالعين بعد اغماض الجفنين ، الامر الذي يجعل الحركة مقترنة بالصورة .

6) هكذا نشا الاختراع كنتيجة لمختلف الابحاث والممارسات التي تتجلى كلها فيما سميناه بالنص العلمي . ان اي اكتشاف لا ينتج الا عن نص علمي يتكون شيئا فشيئا ، ينمو ويتشعب حتى يحتوي ميادين مختلفة تنميه وتحفه الى الامام . فكرة تشعب النص العلمي هذه طبقها كاتب كميشيل فوكو في كتابه « تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي » ويكون النص في نفس الوقت ينتمي الى مجتمع معين وتاريخ محدد والى العلم الجامع لهذا المجتمع . فالاختراع الكبير هو نتيجة النهضة الغربية ، نتيجة نظرياتها الفلسفية والاقتصادية ونتيجة تطور مجتمعها . فمن جهة ينبثق الاختراع عن نظريات الشخص في مفهوم ديكارت وغاليلي مثلا ، ومن جهة اخرى يواكب تطوره تطور وتكوين المجتمع الراسمالي الغربي . فبهذا ينطوي الاختراع على نظريتين أساسيتين فيما يخص المجتمع الغربي = نظرية العين ، ونظرية المقروء (« الانا ذلك العين » = يقول جان لاكان) نظرية المنتوج البضائعي والاستهلاكي المقترنة بالما ـ فوق القيمة والربح الراسمالي (آلة دكسون صنعها لتنعم عليه بالربح) .

7) من المسلم به الآن ان فكرة الاسبقية في الحقل المقولي ما هي الا تطبيق لفكرة التنافسية

الراسمالية لان العلم نتاج (وليس منتوجا بضائعيا اسنهلاكيا) متطور لا نهائي يحتوي على خطابات مختلفة متشعبة ، تنتج بعضها عن بعض فتكون سلسلة التوائية حلزونية لا متناهية . فبرنامج المحاضرة التي القيت بلندن سنة 1881 تحتوي على العلامات الاولى التي ستؤدي الى الاختراع . مواضيع هذا البرنامج :

انتشار الضوء / الامواج الضوئية .
المرايا المحدودبة و / المقعرة / انكسار الضوء المنحرف .
الطيف الضوئي / انكسار الضوء المنحرف .
اقراص نيوتون / التشابكات الطبيعية .
الكلوتروب / اشعاع الآلي، والريش والبالونات الصابونية .
البقاء الضوئي على الشبكة / الفوتودروم .
كورنتسكوب (بايل)

8) كان هذا في عام 1881 . نجد آثار هذا الكلام وهذه المواضيع قبل ثمانية قرون وفي فضاء علمي غير غربي ، وبصفة ادق في المجال العلمي العربي . في الوقت نفسه الذي كان فيه افلاطون يتحدث عن صورة الكهف ، كانت مصر الفرعونية على علم بالحجرة المظلمة . وفي نفس المنطقة سينتج الخطاب العلمي العربي في القرن العاشر الميلادي كل العلامات وكل الخطوات النظرية وحتى التطبيقية التي تسفر عن اختراع الآلة السينمائية . يقترن هذا الخطاب اساسا باسم الحسن ابن الهيثم .

9) الحسن ابن الهيثم : انه علامة صيغة المبالغة (زيادة على انها مؤنثة ...) تشير الى ما يحدد تاريخيا محترفي العلم في الحضارة العربية الاسلامية : كل عالم يكون بمثابة الموسوعي – فابن الهيثم هو في نفس الوقت عالم فلكي ، ورياضي ، شاعر ، نحوي ، طبيعي ، وبصري . اختصاصه بعد ذلك : علم البصريات قال عنه المؤرخ الانجليزي سارتون : « انه من اكبر دارسي البصريات في كل زمان ومكان » .

خطاب العلامة هذا ينتمي هو الآخر الى مجتمع والى تاريخ معينين . الخطاب العربي – الاسلامي العلمي خطاب جامع ، يلم في نفس الوقت بميادين مختلفة . ورايننا ان الاختراع هو على كل حال نتيجة تشعب علمي . لن نندهش اذن لرؤية ابن الهيثم الذي اهتم في آن واحد بعلم الفلك (خط الطول الدرجة 19) . وبالبصريات (وصفه الدقيق للعين) كما تجدر الاشارة الى (الجو) العلمي الذي عاصره ابن الهيثم : هناك ابن سينا الطبيب والفلكي الرياضي الذي دون (القانون في الطب) . ثم اكتشاف البيروني (وهو رياضي وفلكي) : ان سرعة الضوء اكثر من سرعة الصوت . ثم ابن يونس الرياضي القاهري . ثم عمار بالقاهرة كذلك الذي دون (كتاب امراض العين) .

10) وكعالم بصريات حلل ابن الهيثم العين واهتم بمشكل الرؤية . ويؤكد سرتون ان عمل ابن الهيثم تطبيقي ، كما ان احدى نظريات ابن الهيثم هي بمثابة انقلاب وقطيعة علمية تشابه في ذلك القطيعة الكوبرنيكية فيما يخص دوران الارض ككوكب من بين الكواكب الاخرى . وابن الهيثم هو اول من اكد ان اشعاع الاجسام بواسطة اشعة الضوء تنعكس من هذه الاجسام وترتد الى العين وليس العكس (اي العين هي التي تشع على الاجسام) كما كان يقول بذلك اقليدس او الكندي . كل الاكتشافات والاقتراحات التي اتى بها علامتنا دونها في كتابه الاساسي (كتاب المناظر) (في اي مكتبة يا ترى يوجد مخطوطه ؟) . والكتاب يحتوي على ما يسميه الغرب بنظرية ابن الهيثم والتي طبقها بيكون وكبلير .

11) وبالمقارنة مع مواضيع المحاضرة اللندنية (1881) ، نعرض هنا بعض المواضيع التي تطرق اليها ابن الهيثم في ابحاثه (كان يقدمها على شكل مقالا ت:

تفسير الرؤية المزدوجة .
المرايا : محدودبة ومقعرة .
مقالة في ضوء القمر .
مقالة في المرايا المحرقة بالدوائر .
مقالة في المرايا المحرقة بالقطوع .

مقالة في كيفيات الاظلال في الضوء .
في صورة الكسوف .

في كتاب (في صورة الكسوف) (لنشر الى عبارة الصورة) تحدث ابن الهيثم عن تطبيق الحجرة المظلمة ، واستعمالها في مراقبة الكسوف الشمسي . اذن ابن الهيثم يعلم تطبيقيا بوجود الحجرة المظلمة ، كما انه توصل الى انتاج صورة خيالية وهي انعكاس صورة الكسوف . هذا عطاء ابن الهيثم كفلكي . غير ان هناك ابن الهيثم العالم الطبيعي وعالم البصريات . بعد اهتمامه بمشاكل العين والرؤية ، كان من الطبيعي ان يشير الى ويتحدث عن مبدا بقاء الرؤية ، وهنا ايضا بصفة تطبيقية . هذا هو ما سميناه بالدائرة النارية وهي تجربة علمية ، قام بها ابن الهيثم ويمكن تجديدها .

: لناخذ عمودا يشتعل نارا ولنجعله يدور دورانا سريعا امام عين مبصرة ، اذ ذاك تشاهد العين دائرة منتظمة متتابعة . عند اغماض الجفنين ، يستمر الاحساس بالدائرة الضوئية منطويا في شبكة العين . هذه الحقيقة البصرية تشكل المبدا الاساسي الثاني لاختراع السينما : فالعين تستغرق جزءا من ثانية في تسجيل انطباع الخيال ونقله الى المخ . وبعد ان تتلقى العين الانطباع تحتفظ به مدة تتراوح بين جزء على عشرين (20/1) وجزء على عشرة (10/1) من ثانية ، بعد ان يكون الخيال نفسه قد اختفى ، ، ووفقا لهذا تقوم آلة العرض السينمائي بسحب الفيلم بين الضوء والعدسة في حركة (توقف وانطلاق) بحيث يتوقف عرض الفيلم بعد كل اطار فترة تكفي لكي تتلقى العين الصورة ، حتى اذا ما احتفظت العين بالخيال قامت آلة العرض بتقديم الاطار الموالي الى ان تعطي حركة التوقف والانطلاق هذه وهم صورة مستمرة (متحركة . ملاحظة وتطبيق بقاء الرؤية اول من اهتم به فيما يخص السينما هو ماري ((Marcy)) وقد سمي اختراعه : كرونوفوتوغراف) .

12) نرى ان المبدانين الاساسيين اللذين يؤديان الى اختراع آلة السينما وهما : 1) تسجيل العالم الواقعي بوسيلة الحجرة المظلمة . 2) انتاج الحركة وتوهم استمرارها عن طريق بقاء الرؤية، موجودان في كتاب ابن الهيثم . غير ان السينما كآلة كاملة جاهزة لم تر الوجود الا سنة 1895 (تاريخ تسجيل حق اختراع « السينماتوغراف » ((Cinématographe)) من طرف الاخوين لوميير ((Lumière)) وليس في عام 1000 العصر الذي عاش فيه ابن الهيثم بالقاهرة . السينماتوغراف كما قلنا هو نتيجة وعطاء الفكر العلمي التكنلوجي الخاص بالقرن التاسع عشر الغربي . واما خطاب ابن الهيثم فهو خطاب علمي تطبيقي ومادي يكون حلقة من حلقات سلسلة النص العلمي المتزونية اللامتناهية لما احتوى عليه من تطبيق للحجرة المظلمة ومن تجربة لبقاء الرؤية .

13) فكان على باقي الحلقات ...

طنجة ـ باريس 1973 .

* بنفس العنوان ، نشرت مجلة Intégral « تقطيع تقني فيلمي »

● مغامرة فيلم / رندة الشهال

هذه الشهادة كتبتها رندا الشهال ، المخرجة اللبنانية الشابة ، حول فيلمها الاول « خطوة ... خطوة » الذي عرض في مهرجان (كان) الاخير وفي بيروت . انها شهادة التحدي والاصرار على المواجهة وتحمل المسؤولية في مرحلة صعبة ، هي مرحلة الحرب ، ورغم كل المثبطات والمعوقات العملية التي واجهتها .

ـ هل انت راضية عن فيلمك « خطوة ... خطوة » ؟
ـ مقتنعة .. لكنني غير راضية ؟